فقال لهم هذا الشيخ سلامكم الذي هو اصلح في حقكم ان لا تسلموا عليهم لان سلامكم معلول
ولبس طاعة وتداركتم بسلامكم الدنيا فترك هذا السلام اسلم منه والله اعلم والا فلا سبيل
لاحد من العلما والصالحين ان يقول ترك السلام افضل من فعله على الاغنيا قال الامام رضي الله
عنه وقال شعيب بن حرب بينا انا في الطواف اذ لكزني انسان بمرفقه فالتفت فاذا هو
الفضيل فقال يا ابا صالح ان كنت تظن انه شهد الموسم شر مني ومنك فبئس ما ظننت قال
الشارح رضي الله عنه وهذا يدل على كمال معرفة الفضيل بنفسه وخفايا اعماله وعلى ايقاعه
عبادته على ما بلغه علمه من جلال ربه وعظمته ولذلك قال ما قال فان الخلق يطلبون في اعمالهم
على حسب ما عليهم من علومهم فلما كان الفضيل عظيم الاجلال لمولاه وعارفا بان حاله في الناس
ليس كما يصلح ان يكون مع مولاه وظنه بالناس حسن فتيه رضي الله عنه اخاه على ذلك
ليكمل تواضعهما مع كمال اعمالهما قال الامام رضي الله عنه وقال بعضهم رايت في الطواف انسانا
بين يديه شاكرية يمنعون الناس لاجله عن الطواف ثم رايته بعد ذلك يمده على جسر بغداد
يتحمل شيئا فتعجبت منه فقال لي انا تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه فابتلاني الله سبحانه
بالتذلل في موضع يترفع فيه الناس قال الشارح رضي الله عنه وهذا وفقك الله يدل على انه
كان من عمال الخليفة وصل الى الحج فلم يرض ان يطوف مختلطا مع الناس فقدم من يصده
الخدام يوسعون له كبرا حتى لا يخالط الفقرا والناس في الطواف فعمل معه هذا الشيء الى ان
وصل الى بغداد ونقم عليه الخليفة بعض ما ينقم على العمال وسلبه جميع ما هو منه وصار
فقيرا يسال الناس حال هذا الراوي له في الطواف وبين يديه الشاكرية فلما راه بعد ملفه
يسال ببغداد ذهب متعجبا منه ففهم عنه ذلك فقال لي تكبرت في موضع يتذلل فيه الناس
فاذلني الله في موضع يتعزز فيه الناس قال الامام رضي الله عنه وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي
الله عنه ان ابنا له اشترى خاتما بالف درهم فكتب له عمر بلغني انك اشتريت فصا بالف درهم
فاذا اتاك كتابي فبع الخاتم واشبع الف بطن واتخذ خاتما من درهمين واجعل فصه حديدا
صينيا واكتب عليه رحم الله امرا عرف قدر نفسه قال الشارح رضي الله عنه وهذا يدل
على انه اشترى فصا من ياقوت احمر من اعلى جنس الياقوت واراد ان يجعله في خاتم ويلبسه
في يده وهذه امارات المتكبرين بالدنيا فلما بلغ ذلك والده كتب اليه بيع الفص واشبع
به الف بطن فانه افضل لك عند الله واعمل خاتما من درهمين فضة واعمل فصه حديدا صينيا
فانه انبت للنقش عليه لصلابته واكتب عليه نقشا رحم الله امرا عرف قدر نفسه فكلما راه
تذكر قدر نفسه وتواضع لربه وامره له بالتصدق بثمنه مقابلة للشي بضده وذلك انه لما كان
نوى التكبر امره باخراجه في جهة البر ليقابل الشر بالخير فيمحو الاثر فانه عزم على التكبر حرام
قال الامام رضي الله عنه وحمل عرض على بعض الامرا مملوكا بالوف دراهم فلما احضر الثمن استكثره

فبدا له في شرائه فرد الثمن الى الخزانة فقال العبد يا مولاي اشترني فان فيّ بكل الف درهم
خصلة تساوي اكثر من الف درهم فقال وما هي فقال اقلها وادناها انك لو اشتريتني وقدمتني
على جميع مماليكك لا اغلط في نفسي واعلم اني عبدك فاشتراه قال الشارح رضي الله عنه وهذا
يدل على معرفته بقدر النفس من افضل الخصال التي تتفق في الانسان وهي اصل التواضع لان هذا
العبد لما احضر ثمنه فاستكثره المشتري الثمن بالنسبة الى العبد وهي الوف من الدراهم فبدا له
في الشرا واراد ان يعرف الثمن فرغبه العبد فيما فيه من الخصال فقال في من الخصال ما ان
كل خصلة تساوي الفا واقلها قدرا انك لو ملكتني جميع امرالك وجعلتني ناظرا او مختاطا
على جميع حشمك ومماليكك لم اغلط في نفسي وذكرت اني عبدك وهكذا يكون كمال التواضع
لانه بالنسبة الى الرفعة والكمال وانما يعرف قدر التواضع بالنسبة الى كمال المتواضع دينا ودنيا
والا فمن لا قدر له فتواضعه وضعه قال الامام رضي الله عنه وحكي عن رجا بن حيوة انه
قال قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يخطب باثني عشر درهما وكان قبا وعمامة
وقميصا وسراويلا ورداء وخفين وقلنسوة قال الشارح رضي الله عنه وهذا من النمط الذي
قدمناه فانه لا احد ارفع قدرا من الخلفا ولا سيما مثل عمر بن عبد العزيز الذي ارتفع قدره دينا
ودنيا ومع هذا فهذا تواضعه في لباسه قال الامام رضي الله عنه وقيل مشى عبد الله
ابن محمد بن واسع مشيا لا يحمد فقال له ابوه تدري بكم اشتريت امك بثلاثمائة درهم وابوك
لا اكثر الله في المسلمين مثله ابا وانت تمشي هذه المشية قال الشارح رضي الله عنه
وهذا يدل على انه يختال في مشيته وهي مشية يبغضها الله الا في الحرب فكره من ولده
ذلك وناداه واراد ان يعرفه اصله من جهة ابيه وامه فان من عرف اصله وضع قدره
ذل في نفسه ورجع عن كبره وزهوه فقال له تدري بكم اشتريت امك فذكر له الدراهم
ثم قال له وابوك لا كثر الله في المسلمين مثله ابا وهذا منه ليس دعا على المسلمين فانه كان
من الفضلا ولكن في كلامه اشارة الى التقصير في تاديبه في الصغر حتى اختال في مشيته
في الكبر ولهذا قال لا كثر الله في المسلمين مثله ابا يعني الابا الذين لا يؤدبون اولادهم في الصغر
حتى يتعودوا ذلك في الكبر وهذا دعا للمسلمين بان يجعلهم ممن يؤدبون اولادهم كما امروا
به في حق اولادهم في الصلاة وغيرها قال الامام رضي الله عنه سمعت محمد بن الحسين يقول
سمعت محمد بن احمد الفرا يقول سمعت عبد الله بن منازل يقول سمعت حمدون القصار يقول التواضع
ان لا ترى لاحد الى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا قال الامام رضي الله عنه وهذا
يدل على كمال معرفته بمولاه وانه لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع له ولغيره الا اياه فمتى
استقر هذا المعنى من المعرفة في القلوب وعرف العبد عجز نفسه وذلة قدرها وعدم اثرها في شي
الا شيا عرف عدم احتياج الناس اليه لا في الدنيا ولا في الاخرة لانفراد مولاه بالافعال وان اجرى عليه

Copyright © King Saud University